ضوابط العمران والبنيان

(رؤية فى ضوء القرآن الكريم)

د.م/ يحيى وزيرى(*)

مقدمة:

إذا تأملنا سور القرآن الكريم يلفت نظرنا أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أسماء بعض منها له ارتباط بالعمارة والتعمير، كسور: "الكهف" و"الحجرات" و"البلد"، كما جاء ذكر العمارة بلفظها أو اشتقاقها فى آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾[الطور:٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الروم:٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨].

كما جاء ذكر أسماء بعض المدن والقرى مثل بكة (مكة) فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران- ٩٦]، كما جاء ذكر المدينة المنورة فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾[التوبة: ١٠١]، كما جاء ذكر بعض المدن من الحضارات التى سبقت الإسلام كمدينة "إرم" بالأحقاف وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[الفجر: ٦، ٧]، ومدينة "سبأ" باليمن فى قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل- ٢٢].

ولم يكتف القرآن الكريم بذلك بل قص علينا من خلال بعض آياته بعضًا من

(*) خبير العمارة الإسلامية والبيئية ومحاضر بكلية الآثار - جامعة القاهرة.

جوانب الحضارات المعمارية للأمم السابقة وما كانت تحويه من تقدم عمرانى وحضارى كبير، لذلك فإن الهدف من هذه الورقة البحثية هو محاولة إلقاء الضوء على بعض ضوابط وأسس عمران المجتمع الإسلامى من خلال تدبر ما جاء فى بعض الآيات القرآنية، من أجل توضيح الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض والتى تعتبر بمثابة الثوابت الواجب مراعاتها بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان.

أولا: ضوابط العمران والبنيان فى ضوء قصص القرآن:

قص علينا القرآن الكريم من خلال بعض سوره وآياته قصصا لحضارات جاءت قبل بعثة النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح العلماء والمفسرون قصة الصراع بين الحق متمثلا فى رسل وأنبياء الله ومن اتبعوهم بإحسان وبين الباطل متمثلا فى القرى والأقوام الظالمة التى كفرت بأنعم الله وصدت عن سبيل الحق، فى محاولة منهم لإظهار الدروس والعبر التى حواها القصص القرآنى مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[يوسف: من الآية ١١١]، ولم يكتف القرآن بذلك بل أمر المسلمين بالسير فى الأرض والنظر فى آثار الأمم السابقة وكيف كان عاقبة المكذبين بالرغم مما وصلت إليه هذه الأمم من تقدم حضارى وعمرانى لم يغن عنها من الله شيئا.

كما حمل القصص القرآنى فى طياته العديد من الضوابط والمفاهيم الخاصة بعمارة وعمران الأرض، والتى تعتبر بمثابة القواعد والأسس التى يسترشد بها المسلمون فى كل زمان ومكان من أجل عمارة الأرض العمارة الصالحة الفاضلة، كما أرادها الله سبحانه وتعالى وأكد عليها رسله وأنبيائه فى دعوتهم على مر العصور.

إن الهدف من هذا الجزء من البحث هو محاولة استنباط بعض ضوابط العمران والبنيان فى ضوء ما ورد ببعض القصص القرآنى، وهو ما سوف نوضحه فى المحاور التالية:

١- التحذير من الممارسات الإعمارية الفاسدة:

يلفت القرآن الكريم النظر إلى ما حدث لثلاث حضارات معمارية كبرى حادت عن طريق الحق وطغت فى البلاد وبطرت معيشتها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ٦-١٤]، فما هى الممارسات الإعمارية الفاسدة التى جعلت المولى سبحانه وتعالى يصب العذاب على هذه الحضارات صبا؟.

بالنسبة لقوم "عاد" فقد كانوا يسكنون الأحقاف، وهى جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت[1]، وكانت لهم حضارة معمارية عظيمة وصفتها الآيات القرآنية بأنها لم يخلق مثلها فى البلاد فاغتروا بنعم الله عليهم واستكبروا فى الأرض، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، ومن نماذج الممارسات الإعمارية الفاسدة أنهم أقاموا مبانى العبث والفجور وقد أخبر بذلك القرآن الكريم على لسان نبيهم سيدنا "هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء:١٢٨-١٣١]، فالله سبحانه وتعالى ينعى على "عاد" قوم "هود" أنهم كانوا يبنون بكل ريع، أى مكان مرتفع، آية أى بناءا ظاهرا كالعلم لقصد العبث بمن يمر فى الطريق من الناس، وفى ذلك استخدام للأبنية فى غير ما شرع الله بناءها، كما يفهم من الآية أيضا أنهم كانوا يبنون فى الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث[2].

وبذلك يمكن القول بأن استنكار الآيات السابقة للسلوك الاعمارى لقوم عاد يتركز على قضيتين أساسيتين متلازمتين نتجتا عن اضطراب فى التصور العقائدى[3]:

(١) الحافظ ابن كثير (١٩٨٢) . قصص الأنبياء . دار الحديث، القاهرة، ص ,٨٩

(٢) أحمد محمد السعد (٢٠٠٣) . ضوابط بناء المساكن فى الفقه الإسلامى . مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن .

(٣) عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣) . فقه الاعمار وضوابطه فى الفقه الإسلامى . مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن .

القضية الأولى: عبثية الغاية من البناء والاعمار، فعاد قد بنت المبانى العظيمة بقصد المباهاة وإظهار القوة ولم تبن للحاجة ولا لغرض سليم، ولهذا استنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان واتعاب للأبدان واشتغال بما لايجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة.

القضية الثانية: غياب التصور الصحيح الذى تستند عليه الممارسات الاعمارية، فالبناء والاعمار إنما هو لسد خلة البانى وحاجته فترة بقائه وبنيه فى هذه الدنيا، لذا فالمبالغة الشديدة فى البناء حتى يظن أن البانى مخلد فى دنياه يتضمن بذلاً للأموال وإتعابًا للأبدان وإشغالاً للوقت عن المهمة الأعظم والدور الأكبر من تعبيد الخلق لبارئهم والإعداد ليوم لقائه.

أما "ثمود" فقد كانوا يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، وكانت لهم حضارة مادية عظيمة تتجلى فى بناء القصور الفخمة فى السهول ونحت البيوت فى الجبال، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]، لقد تميزت حضارتهم بالرفاهية العمرانية حيث اتخاذ القصور فى السهول حيث طبيعة البيئة والمناخ تختلف عن اتخاذ البيوت المنحوتة فى الجبال، فهم أقاموا أماكن صيفية وأخرى شتوية لرفاهيتهم(١).

ولم تقتصر الحضارة الثمودية على الرفاهية العمرانية فقط بل حولوا السهول إلى جنات وارفة الظلال متنوعة الثمار، فجمعوا بذلك بين فخامة العمران وإنشاء الحدائق وغرس الجنان، وفى هذه المعانى يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ

(١) يحيى وزيرى (١٩٩٢). التعمير فى القرآن والسنة. القاهرة، ص ١٤.

﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[الشعراء: ١٤٦- ١٤٨]، فالله سبحانه وتعالى أنعم عليهم وجعلهم فى أمن من المحذورات وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات، كل ذلك إلى جانب البيوت القوية الآمنة سواء كانت منحوتة فى الجبال أو مقامة فى السهول.

ويأتى القصص القرآنى مؤكدا على المعانى السابقة من خلال الصراع بين الحق والباطل، بين سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من جانب وفرعون وهامان رموز الكفر والباطل من جانب آخر، فهاهو فرعون يغتر بنعم الله عليه وبدلا من أن يشكر يفتخر ويتعالى على قومه كما أخبرنا بذلك سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف- ٥١]، قال قتادة[١]: "كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره".

لقد اغتر فرعون بالملك والنعم التى من الله بها عليه وكفر بإنعامه وكانت النتيجة الفساد فى العقيدة وانعكس ذلك على انحراف الممارسة المعمارية..فماذا حدث؟، يخبرنا القرآن الكريم بأن فرعون قد أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطين ليبنى صرحا، وهو القصر العالى أو البناء العالى الذاهب فى السماء[٢]، ليظهر لرعيته كذب دعوة موسى فى إثبات الألوهية لله تبارك وتعالى، وهو ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[القص: ٣٨]، ومرة أخرى يقترن الفساد العقائدى والاستكبار فى الأرض مع انحراف الممارسة الاعمارية، ويصبح "الصرح" المعمارى أداة للاستهزاء من دعوة موسى والصد عن سبيل الله.

لقد أوضحت العديد من الآيات القرآنية أن الظلم وارتكاب المعاصى والكفر بالله من أهم أسباب حلول الخراب وإهلاك القرى والأمصار مهما بلغت من درجات الرقى الحضارى

(١) انظر تفسير الآية ٥١ من سورة الزخرف فى "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبى .
(٢) انظر: المعجم الوجيز (٢٠٠٠) . طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية، ص ٣٦٣

والعمرانى، والآيات الدالة على ذلك كثيرةنذكر بعضا منها فى مقامنا هذا، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[الحج: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[القصص- ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ربك مُهْلِك الْقُرَىٰ وَأَهْلُهَا مصلحون﴾[هود- ١١٧].

وفى أحيان أخرى يجعل الله سبحانه وتعالى النتاج المعمارى لبعض من هذه القرى والحضارات الكافرة عبرة لمن بعدها من الأمم، ومن أشهر هذه الحضارات حضارة عاد وثمود حيث يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى ما تركوه من مساكن وآثار فى قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:٣٨]، فلقد جاء فى السنة النبوية عن ابن عمر قال: "لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمر رسول الله فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة (ناقة صالح)، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: "إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم"[(١)].

ومدآئن صالح الآن هى إحدى محطات السكة الحديدية الحجازية، ولقد زارها كثيرمن المستشرقين وكتبوا عنها، وكان من أهم ما عثروا عليه من الآثار هو ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج، وقد شاهدوا نقوشا عليها بالخط المسند الآرامى ولغتها هى العربية الشمالية التى لا تختلف إلا قليلا عن الفصحى[(٢)].

أما بالنسبة لحضارة عاد فإنه فى يناير من سنة ١٩٩١م بدأت عمليات الكشف عن آثار فى صحراء الربع الخالى بالجزيرة العربية فى منطقة "شيصار"، وأعلن عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج فى زواياها، مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) توفيق محمد سبع (بدون تاريخ). قيم حضارية فى القرآن الكريم (ج١). القاهرة، ص ١٦٧

إلى ٩ أمتار وقطرها إلى ٣ أمتار، ويرجح العالم المصرى الأستاذ الدكتور زغلول النجار أن هذه الآثار ربما تكون لمدينة "إرم" التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم(١).

تلك هى آثار وبقايا حضارات عمرانية عظيمة ولكنها كذبت رسولها وتشبثت بالكفر وأمعنت فى الظلم، فجعلها الله سبحانه وتعالى بقدرته أثرا بعد عين ولا يخاف عقباها، فبادت كما بادت من قبلها وان تنوعت الوسيلة، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة: ٥، ٦].

انه الإهلاك على أى حال، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقى حين ربط بين خراب العمران والمستوى الأخلاقى للمجتمعات الإنسانية فى قوله(٢):

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

٢- تقوى الله أساس الممارسات الاعمارية الصالحة:

على الجانب الآخر يعطينا القصص القرآنى نماذج يحتذى بها فى الممارسة الاعمارية الصالحة التى تدعو إلى سبيل الحق وعبادة الواحد الأحد، فهاهى الآيات الكريمة تصف لنا الصرح "السليمانى" الذى أقامه سيدنا سليمان لاستقبال بلقيس ملكة سبأ فى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[النمل:٤٤]، لقد كان هذا الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ليريها ملكا أعظم من ملكها، وحكى أبوعبيدة: أن الصرح كل بناء عال مرتفع عن الأرض وأن الممرد المحكوك الأملس ومنه الأمرد(٣).

---

(١) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى:

* زغلول النجار (١٩٩٢). اكتشاف مدينة ارم ذات العماد التى تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا. جريدة الأهرام المصرية (١٠/ ٤/ ١٩٩٢).

* زغلول النجار (٢٠٠٢). من أسرار القرآن. جريدة الأهرام المصرية (٧/ ١٠/ ٢٠٠٢).

(٢) يحيى وزيرى (١٩٩٠). خواطر الشيخ الشعراوى حول عمران المجتمع الإسلامى. مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة، ص٢٠.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٥ من سورة النحل فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى.

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام قد استخدم هذا الصرح المعمارى، الذى يعكس قمة الجمال والإبداع الفنى، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ الكافرة للدخول فى الإسلام والإيمان بالله، وفى هذا المقام يصبح "الصرح السليمانى" المبنى من الزجاج محمودا عند الله لسمو الغاية التى بنى من أجلها ألا وهى الدعوة إلى الله، فى حين أن الصرح "الفرعونى الهامانى" المبنى من الآجر (الطين المحروق) مذموم عند الله؛ لأن الغاية من بنائه كانت السخرية والاستهزاء من دعوة موسى والصد عن طريق الحق.

ومن ذلك يتضح لنا معنى ومفهوم جليل فى عملية البناء والممارسة الاعمارية، فالعبرة دائما بالهدف والغاية من عملية البناء بغض النظر عن فخامة المبنى أو وضاعته، أو غنى المواد المستخدمة فى إنشائه أو فقرها، فالقضية ليست قضية مظهر خارجى بل هى أعمق من ذلك حيث ترتبط بالتصورات الاعتقادية للمعمرين والهدف من الممارسة الاعمارية نفسها، والتى على أساسها يمكن الحكم على البنيان والعمران بالصلاح أو الفساد.

وفى مقارنة أخرى بين نموذجين لبنائين على عهد سيدنا إبراهيم خليل الله يتضح لنا كيف يكون موقف السماء من الممارسات الاعمارية على الأرض، ففى الحالة الأولى يرشد الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم لمكان البيت العتيق ليرفع قواعده فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦]، أما عن رفع قواعد البيت فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]، إن الآيات الكريمة السابقة توحى إلينا بأهمية ارتباط الممارسة الاعمارية بالعقيدة السليمة (ألا تشرك بى شيئا) كشرط أساسى، إلى جانب التقوى والتواضع لله جل شأنه (ربنا تقبل منا) وفى هذه الحالة فإن السماء تعلى وتبارك هذا البناء.

أما فى حالة الحياد عن منهج الله، وهى الحالة التى تمثل النموذج الثانى، فإن النتيجة

الحتمية هى تدمير البنيان والعمران كعقاب وعذاب ولو بعد حين، ونلمح هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النحل: ٢٦]، قال ابن عباس وزيد ابن أسلم وغيرهما: "إنه النمرود بن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتال أهله فبنوا الصرح ليصعدوا منه، ومعنى "فأتى الله بنيانهم" أى أتى أمره البنيان إما زلزلة أو ريحا فخربته[1].

إن المقارنة السابقة بين رفع وإعلاء بنيان الكعبة المشرفة وتدمير بنيان النمرود لتؤكد وتوضح موقف السماء الثابت من عمليات الاعمار على الأرض، فهى تبارك كل بنيان أسس على تقوى الله من أجل عمارة الأرض عمارة صالحة فاضلة تيسر للبشر أمور العبادة والمعيشة، كما تدمر أو تعطل كل بنيان أو عمران فاسد.

إن التقوى هى الأساس المعنوى لكل بنيان وعمران مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ١٠٩]، أما بعد عمارة الأرض فلا يجب أن نفتتن بالمساكن والدور والعشيرة والأموال، بحيث تصبح أحب إلينا من طاعة الله ورسوله والجهاد فى سبيله، وإلا لا نكون قد اعتبرنا بما حدث للأمم المذكورة فى قصص القرآن؛ لذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذا بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤].

٣- الغاية من إقامة المدن والقرى:

فى عصرنا الحديث تبنى المدن أو تقام التجمعات العمرانية الجديدة من أجل توفير

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من سورة النحل فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

وإيجاد المساكن والبيوت خاصة للشباب، وبالأخص المتزوجين حديثا أو المقدمين على الزواج،وهو هدف طيب لاغبار عليه، ولكن فى الرؤية القرآنية فإن الغاية من إقامة المدن والتجمعات العمرانية الجديدة هى غاية أكثر سموا ورقيا ولا تنحصر فقط فى إيجاد المزيد من البيوت والمساكن.

ففى ملمح قرآنى يتأكد لنا أن الغاية من إعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[ابراهيم: ٣٧]، فالغرض الأساسى من إسكان سيدنا إبراهيم لزوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت الحرام هو إقامة الصلاة، والصلاة هنا هى رمز وأساس لكل العبادات الأخرى، فمن أقام الصلاة فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين كما علمنا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ثم بعد ذلك تأتى باقى الأهداف من إقامة التجمعات العمرانية من توفير المأوى وفرص العمل للأجيال الجديدة.

ثم نلمح من الآية الكريمة السابقة أن أساس الإسكان والتجمع هو وجود بيت الله الحرام فى هذا الوادى الذى لايوجد فيه زرع وبالتبعية أيضا لايوجد به ماء، وكأن الآية الكريمة تلفت النظر أن بداية وأساس أى تجمع عمرانى هو وجود المسجد أولا.

إن فكرة وجود المسجد (أو المساجد) كأساس لإقامة التجمع العمرانى، سواء كان قريةأو مدينة، تتأكد أيضا من تأمل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١]، فلقد أشارت الآية الكريمة إلى المسجد الحرام وهو أساس التجمع العمرانى فى أم القرى مكة المكرمة، وإلى المسجد الأقصى أساس التجمع العمرانى فى بيت المقدس.

كما أشارت آية كريمة أخرى إلى أن أساس التجمع العمرانى للمسلمين فى المدينة المنورة قد بدأ ببناء المساجد أولا، وهو ما حدث بالفعل بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة إلى "يثرب"، فقد كان أول ما فعله عليه الصلاة والسلام أن قام ببناء مسجد "قباء" ثم بعد ذلك مسجده عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمره بعدم الصلاة فى مسجد "الضرار" الذى بناه المنافقون ضرارا لمسجد قباء الذى أسس بنيانه على التقوى مصداقا لقوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٨].

وقد ورد فى الحديث الشريف عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال[١]:"المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا"، ولا منافاة هنا بين الآية والحديث لأنه؛ إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أولى وأحرى أن يوصف بذلك أيضا.

لقد أوضح القصص القرآنى أن الأساس الذى أقيمت عليه المدن المقدسة الثلاث عند المسلمين، مكة المكرمة وبيت المقدس والمدينة المنورة، هو وجود المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال، وهى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من أجل إقامة الصلاة وعبادة الواحد الأحد.

لقد فهم المسلمون الأوائل أن عمارة الأرض وتأسيس المدن والأمصار عمل تعبدى فى المقام الأول، الهدف منه إقامة شرائع الدين وسنن النبيين، وهذه المعانى وغيرها نجدها فى دعاء إدريس الثانى (عام ١٩٢ هجرية) عند قيامه ببناء مدينة "فاس" بالمغرب فى قوله[٢]:" اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرةولارياء ولا سمعةولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ما بقيت الدنيا..، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم واكفهم مؤونة

(١) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) البخلاخى أمحند (١٩٩٤) . فاس ومراكش . .مدن لها تاريخ . مجلة المنهل- عدد (٥١٩، جدة، ص, ٢٦٤

أعدائهم وأدرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شئ قدير"، هكذا قرأ المسلمون الأوائل آيات القرآن وقصصه فتدبروها وفهموها واتعظوا بما حدث للأمم الغابرة، وعرفوا أن الغاية من العمران والبنيان أن يكون فى خدمة الدين وإقامة شرائعه وحدوده، دون فخر أو مباهاة أو مكابرة.

ثانيا: التوجه للقبلة وأثره على العمران والبنيان

فى تقديمه لكتاب "تخطيط وعمارة المدن الإسلامية" يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة[1]: "ولعل من أبرز ما يميز الأنماط المعمارية الإسلامية، أنها تتمحور فى بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة (المسجد الحرام)، أما فى الأنماط العمرانية المعاصرة، أو فى عمران المدن الحديثة، فلا وجهة ولاقبلة، ويصعب على الإنسان المسلم، وقد يجد عناء شديدا فى تحديد القبلة، إذا خرج من المسجد وعبر الشارع، ودخل المبانى المعاصرة".

إن الكلمات الموجزة السابقة توضح أحد ضوابط العمران الإسلامى التى يغفلها المعمار الإسلامى المعاصر عند تخطيط المدن وتصميم المبانى، اعتقادا أو جهلا بعدم أهمية توجيه هذا العمران إلى جهة القبلة، بالرغم مما فى هذا التوجه من الرموز والإشارات الدينية والعقائدية، إلى جانب تلافى العديد من المشاكل التصميمية وبخاصة فى حالة المساجد وهو ما سوف نوضحه فيما بعد عند مناقشة السلبيات الناتجة عن عدم توجيه العمران والمبانى للقبلة.

١- أدلة التوجه للقبلة وعلاقة ذلك بالعمران والبنيان:

إذا نظرنا للتوجه للقبلة من وجهة تأثيرها على مبانى المجتمع المسلم، فإننا نجد أن التوجه للقبلة هو أحد أهم الثوابت التصميمية الخاصة بعمارة المساجد مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ

(١) انظر: خالد عزب (١٩٩٧). تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. كتاب الأمة، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والشؤونالإسلامية، قطر، ص ٢٣، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف واللمسجد وعبر الشارع، ودخل المبانى المعاصرة" .هة ولاقبلة، ويصعب على الانسان الم

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة: ١٤٤]، فعلى ذلك يمكن أن نتخيل أن كل مسجد فى شتى أنحاء المعمورة يحتل نقطة على محيط دائرة مركزها الكعبة، وتبعا لذلك يكون جدار القبلة هو أهم عنصر معمارى فى أى مسجد، وبالتالى يصبح توجيه المسجد من الوجهة التجريدية هو المحدد لشخصية المسجد وليس مجرد عناصره الأخرى المختلفة.

إن عملية أداء الصلاة لاتقتصر فقط على المساجد، فإن صلوات النوافل والسنن يمكن أن تؤدى فى البيوت أيضا، وعملية أداء الصلاة فى البيوت كانت موجودة عند بنى إسرائيل عندما كانوا فى مصر على عهد فرعون موسى ويتضح لنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٨٧]، قال أكثر المفسرين فى تفسير الآية الكريمة:" كان بنو إسرائيل لايصلون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بنى إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم سرا، وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت، وفى الشريعة الإسلامية فإن صلاة النافلة فى البيت أفضل من المسجد، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديث زيد ابن ثابت:" فعليكم بالصلاة فى بيوتكم فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة» (أخرجه البخارى)[١].

وقال العوفى عن ابن عباس فى تفسير الآية الكريمة السابقة[٢]:" قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لانستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة، وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة[٣]، يصلون فيها سرا وكذا قال قتادة والضحاك".

(١) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .
(٢) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس فى تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير .
(٣) قال بعض المفسرين أن قبلة اليهود فى ذلك الوقت هى بيت المقدس .

مما سبق يتضح لنا أن فكرة جعل البيوت قبل القبلة كانت موجودة بالفعل منذ عهد سيدنا موسى من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لاتباعه الذين آمنوا برسالته، ثم يجيء رسولنا الكريم ليؤكد هذا المفهوم بقوله عليه الصلاة والسلام:" إن لكل شيئ سيدا وإن سيد المجالس قبالة القبلة"(١).

إذن فانه يفضل أن يتم توجيه المباني، سواء السكنية أو العامة، جهة القبلة(٢)مما يساعدعلى أداء الصلوات داخل هذه المباني بسهوله، كما يحقق حديث رسولنا الكريم من أن سيد المجالس ما كان قبالة القبلة.

ونجد من الواجب أن نكرر هنا ما سبق أن ذكرناه فى المحور الخاص "بضوابط العمران والبنيان فى قصص القرآن"، من أن الغاية من اعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء:" ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات﴾[إبراهيم:٣٧]، وهو ما يعنى انعكاس ذلك بصورة مباشرة على التجمعات العمرانية بتوجيه شوارعها ومبانيها إلى القبلة.

٢- ما الذى يخسره العمران الإسلامى بعدم توجهه للقبلة؟

ربما يتبادر هذا السؤال إلى ذهن البعض، وبخاصة أن المدن والمبانى فى المجتمعات الإسلامية ليس لها توجيه محدد، اللهم إلا فى بعض المشروعات التى تأخذ العوامل البيئية فى الاعتبار، أو فى المناطق المخصصة للمقابر والتى يحرص منفذوها على أن تكون هذه المقابر فى اتجاه القبلة لسهولة دفن موتى المسلمين بالطريقة الشرعية.

الإجابة عن السؤال السابق يمكن أن تكون ذات شقين أساسيين: الأول يتعلق بأشياء معنوية رمزية، والثانى يتعلق بأشياء مادية ذات أثر سلبى على عمران ومبانى المجتمع الإسلامى، وسنوضح هذين الشقين فيما يلى:

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

(٢) يفضل فى دورات المياه عدم استقبالها أو استدبارها للقبلة .

أ- الأثر السلبى المعنوى والنفسى على المجتمع المسلم:

لكى نتفهم ماهو الأثر المعنوى والنفسى السلبى الناتج من عدم توجيه العمران الإسلامى للقبلة، فإنه يجب أولا أن نوضح أنه توجد علاقة مباشرة بين أسلوب تصميم المبانى وتخطيط المدن وما يحمله العـمران من دلالات وبين تكوين ثقافة أفراد المجتـمع وتوجهاتهم الفكرية، وذلك لأن لفن العمارة وضعًا خاصا ينفرد به عن باقى الفنون سواء كانت تشكيلية أو غيرها، فالمبنى الذى يقام فى المدينة سيراه كل أفراد المجتمع جـميلا كان أو قبيحا، أراد الناس رؤيته أم لم يريدوا، كمـا أنه قد يزيد من جمـال البيئـة الحضرية أو يسيئ إلـيها، ومن جانب آخـر فإن العمارة تمثل واجهـة صادقة لثقافة المجتـمع والتى تعتبر محصلة لتـفاعل ذكاء الإنسان وفكره ووجدانه مع البيئة التى يعيش فيها[1].

كما أن للعـمران والمبانى دورًا فى تشكيل وبناء الإنسان بطـريق غير مباشـر لا يشعر به، لذلك فإن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا فى عهود سابقة له مقولة ذات دلالة فى هذا السياق، وهى[2]:" نحن نحدد أنماط مبانينا، ولكنها فيما بعد هى التى تحدد أنماط حياتنا".

وربما تتعـدى أخطار العمران بما يحـمله من إيحاءات ومدلولات ورمـوز التشكيل الوجدانى ليـشمل أيضا الجوانب الأخـلاقية، ليصبح الـعمران انعكاسا لأخـلاق العصر الذى بنى فيه، وفـى هذا المعنى يقول الشيخ الشعـراوى رحمه الله[3]:" ولذلك إن أردت أن تعرف خلق وأخـلاق أى عصر واستـقامتـه أو آفاته فى تصريف الحـركة..فلننظر إلى المعمار فى هذا العصر".

وبالرجوع للإجابة عن أثر الشـق المعنوى والنفسى لعدم توجيه العـمران الإسلامى للقبلة، فإننا نجد أن الإسـلام يحرص كل الحرص على تميز شخصية المسلـم وعدم تشبهه بالآخرين من أهل الملل الأخرى، للدرجة التى اعـتبر فيها الإسلام أن من تشبـه بقوم فهو

(١) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: المجتمع وثقافة العمران (٢٠٠٢) . مؤسسة دار الشعب، القاهرة .

(٢) دافيد مـالين رودمان ونيكولاى لينسن (ترجمة: شويكار ذكى) .(١٩٩٧) . ثورة فـى عالم البناء . الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٦٥ ,

(٣) انظر جريدة اللواء الإسلامى، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة .

منهم، وفى شأن القبلة بالذات فإن القرآن الكريم يؤكد على هذا التميز بين أهل الشرائع السماوية فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٤٥]، فالآية الكريمة توضح للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بأنه لو جاء بكل حجة وبرهان لأهل الكتاب على أن توجهه إلى المسجد الحرام فى الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا هذه القبلة عنادا واستكبارا، وما هو بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وأن اتباع أهوائهم فى شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءه من العلم يدخله فى زمرة الظالمين، وفى هذا تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام(١).

لقد أوضح القرآن الكريم فى شأن التوجه للقبلة أن أهل كل شريعة من الشرائع السماوية لهم القبلة الخاصة بهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ومن هنا فإن عدم توجيه العمران فى المجتمعات الإسلامية للقبلة يفقد المسلمين التميز والتفرد الذى أراده الله سبحانه وتعالى عن عمران ومبانى أهل الشرائع الأخرى، مع علمنا بمدى حرص أهل الشرائع الأخرى على عدم اتباع قبلة المسلمين مهما ظهر لهم من الحجج والآيات البينات.

إن عدم توجيه العمران الإسلامى للقبلة يفقد المجتمع المسلم أهم عوامل تميز شخصيته وتفرده من الناحية المعنوية والنفسية، حيث يشعر كل مسلم فى أى مجتمع إسلامى بوحدة الاتجاه وبوجود رباط روحى دائم بينه وبين مكة المكرمة أم القرى، ليس فى المسجد فقط أثناء أداء الصلاة ولكن أيضا فى بيته ومكان عمله وفى جميع المبانى التى يمارس فيها أنشطته الحياتية ما أمكن تطبيق ذلك.

---

(١) انظر: التفسير الميسر (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية). وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ص٢٢، بتصرف.

ب- الأثر السلبى المادى على العمران والبنيان:

أما إذا أردنا أن نعـرف كيف يمكن أن يؤثر عـدم التوجه للقـبلة بطريقة سلبـية على العمران والبنيان، فإننا يجب أن نرجع إلى بعض الدراسات البـحثية الحديثة والتى يمكن أن توضح هذه الجوانب السلبية.

ففى دراسة حديـثة أجريت على ثمانية عشـر مسجدا فى مدينة "مومـباى (بومباى) بالهند[1]، وجد أنه نتـيجة عـدم توجيـه وتخطيط شوارع المدينة للقـبلة فإن هذا أدى إلى انحـراف مدخل هذه المسـاجد عن حـائط القبلة بعـدة درجات تتـراوح ما بيـن ٢ درجة و١٨٠ درجة.

إن الدراسـة السابقـة لاتمثل حالة خـاصة بمدينة "مـومبـاى" بالهند، لأنه بالنظر إلى المخططات العمرانية الحـديثة فى العالم الإسلامى يلاحظ فى كثيـر من الأحيان تعارض اتجاه حـائط القبلة مع باقى أضـلاع قطعة الأرض المخـصصة له، والتى تعـتبـر جزءا من المخطط الشـبكى للمدينة ككل، وهو أسلـوب تخطيطى يختلف عن التـخطيط المتـضام الذى كان متبـعا فى المدن الإسلامية القديمة، وهذه الحالة تـنطبق مع العديد من المساجد فى الأحياء الحديثة من مدن العالم الإسلامى.

ويظهر الأثر السلبى لظاهرة عدم توجيه شوارع ومبانى المدن الإسلامية لاتجاه القبلة بصورة أكبر، فى المساجد صغيرة المساحة أو المخصصة لأداء الصلوات اليومية، حيث إن تعارض اتجاه حائط القبلة مع باقى أضلاع قطعـة الأرض المخصصة للمسجد تؤدى إلى عدم تعـامد الحـائطين الجانبـيين على حـائط القبلة مما يفـقد المصلى داخل هذه المسـاجد الإحساس باتجاه القبلة، كما يؤثر على شكل الفـراغ الداخلى لقاعة الصلاة غير المنتظمة الأضلاع، كما يؤدى فى غالب الأحيان إلى قصر الصفوف الأولى للمصلين الأقرب إلى جدار القبلة، مقارنة ببعض الصفوف الأخرى الأبعد عن جدار القبلة.

(١) Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceedings of the symposium on Mosque Architecture, Vol.3B, pp. 137-181, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

وما ينطبق على المساجد ينطبق على باقى مبانى المدن المعاصرة ولكن بصورة ربما تكون أكثر سلبية، حيث لايمكن التعرف على اتجاه القبلة داخل هذه المبانى إلا بشق الأنفس وفى بعض الأحيان بأساليب يغلب عليها عدم الدقة، وكم عانى الكثير من المسلمين -إذا أرادوا الصلاة فى بيته أو فى غيرها من المبانى العامة الأخرى- من تعارض أسلوب فرش الأثاث الداخلى مع وضع سجادة الصلاة جهة القبلة، كما أن عدم توجيه بيوت ومبانى المسلمين جهة القبلة جعلت المسلمين فى بيوتهم ومبانيهم العامة يفقدون ميزة التوجه للقبلة أثناء الدعاء خارج الصلاة أو قراءة القرآن الكريم أو تلقى دروس العلم النافع وما شابه.

٣- قضايا عمرانية تتعلق بالتوجه للقبلة:

توجد بعض القضايا العمرانية التى يمكن أن تنشأ نتيجة توجيه العمران الإسلامى للقبلة، رأينا من الواجب أن نلفت النظر إليها، وقد تخيرنا منها القضايا التالية:

أ- خصوصية شكل العمران فى مكة المكرمة:

مدينة مكة المكرمة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فوضع فيها بيته الحرام الذى تفد إليه جموع المسلمين من جميع بقاع العالم لكى تؤدى شعائر الحج والعمرة، ولمكة المكرمة خصوصية تختلف عن باقى مدن المسلمين نتيجة لوجود بيت الله الحرام فيها، فلقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى"(١).

ونظرا إلى أن المسجد الحرام هو قبلة أهل الحرم المكى فإن هذا يعنى من الناحية النظرية، أنه فى حالة توجيه كل المبانى فى مكة المكرمة جهة القبلة فإن هذه المبانى سوف تبدو فى صورة دوائر متحدة المركز (وهو هنا المسجد الحرام)، وهذه الدوائر تتسع كلما

(١) انظر تفسير الآية ١٤٤ من سورة البقرة فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

بعـدت عن المركـز، ممـا يعنى أن الشكل الدائرى لمـدينة مكة المكرمـة هو شكـل ينبع من خصوصـيتها دون باقى المدن الإسلاميـة وذلك لوجود المسجد الحرام بهـا؛ لذا لزم التنبيه ولفت الأنظار لهـذه الخصوصـية العمـرانية التى يمكن أن تنفـرد بها أم القـرى فى حالة استقبال كل مبانيها المحيطة بالمسجد الحرام لجهته.

ولكن ربما لوجود المسجد الحرام فى منطقة واد منخفض تحيط به الجبال التى يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠ إلى ٨٠٠ مـتر عن سطح البحر[١]، فإن هذه الظروف الطبيـعية تجعل عملية تشكيل العمران فى مكة على هيئة دوائر تحيط بالمسجد الحرام عملية صعبة التنفيذ على مستوى كل المدينة فى الواقع العـملى، وإن كان يمكن تطبيق هذه الفكرة فى المنطقة المنخفضة التى تحيط بالمسجد الحرام من جهاته المتعددة.

ولاشك أن لعـمران المدينة المقـدسة خـصـوصيـات أخرى، ولكننا أردنا أن نوجـه الأنظار لخصوصية شكل العمـران فيها فى حالة إذا ما تم توجيه كل مبانيـها جهة المسجد الحرام، وربمـا يأتى اليوم مع توفـر الإمكانيات الماديـة والتقنيـات المناسبـة حيث يتـمكن القائمون على أمور المملكة العربية السـعودية من تحقيق هذه الأمنية التى تتيح لزوار بيت الله الحرام أن يكونوا باسـتمرار فى اتجاه المـسجد الحرام حـتى وهم داخل مبانى إقامـتهم مهما بعدت أو اقتربت من المسجد الحرام.

ب- التعارض بين توجيه المبانى للقبلة والظروف البيئية:

القضـية الثانية التى أردنا أن نلفت النـظر إليها هى إمكانية التـعارض بين توجيه مـبانى مدينة ما إلى القبلة، مع الظروف والعوامل البيئية السائدة فى المنطقة المقام فيها هذه المدينة.

وبتفصيل أكـثر فإن توجيه مبانى مـدينة ما فى موقع معين لجهـة القبلة ربما يتعارض مثلا مع الرياح البـاردة المحببة التى تساهم فى خفض درجات الحـرارة ببيوت هذه المدينة فى فصل الصيف مـثلا، أو أن هذا التوجيه للقبلة يجـعل واجهات المبانى الخارجـية أكثر

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد عمـر توفيق (١٩٨٦١) . أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة . كتـاب أبحاث ندوة "الإسـكان فى المدينة الإسلاميـة" بأنقرة، منظمة العواصم والمدن الإسـلامية، جـدة، ص ١٢٧- ١٣٤ .

عرضة للإشعاع الشمسى، فكيف يمكن التوفيق بين توجيه المبانى للقبلة وعدم التكيف مع الظروف والعوامل البيئية فى موقع معين؟.

إذا افترضنا على سبيل المثال أن توجيه بعض المبانى جهة القبلة فى موقع معين يتعارض مع توجيه فتحات هذه المبانى للرياح المحببة السائدة فى هذه المنطقة، فإن استخدام بعض الحلول المعمارية مثل ملاقف الهواء أو البادجير (أبراج الرياح)[١]، مما يسمح بالتقاط الهواء بالرغم من أن المبنى نفسه لايواجه الرياح السائدة، وذلك لأنه يتم توجيه فتحات ملاقف الهواء إلى الجهة التى تهب منها الرياح بالرغم من أن المبنى نفسه بغرفه وفراغاته الداخلية يتجه جهة القبلة.

أما إذا افترضنا أنه فى موقع آخر أو مدينة أخرى أن توجيه المبانى جهة القبلة يجعل واجهات هذه المبانى أكثر تعرضا للإشعاع الشمسى، ففى هذه الحالة يمكن تقليل الفتحات الخارجية مع تضييقها أو استخدام بعض وسائل التظليل الخارجية، وفى حالة توافر المساحات والامكانات المادية فإن فتح النوافذ الرئيسية لهذه البيوت على أفنية داخلية مكشوفة ومظللةفى نفس الوقت يساعد على التغلب على هذه المشكلة، إلى جانب توفير الخصوصية لأهل البيت، وهو ما كان يتم اتباعه فى مبانى المدن الإسلامية القديمة.

إن ظهور بعض المشاكل على مستوى تخطيط المدن أو المبانى بسبب توجيهها جهة القبلة شيئ متوقع، ولكن فى سبيل إحياء إحدى السنن التى حض عليها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ولفت القرآن الكريم إليها الأنظار، فإن على المتخصصين فى مجال تخطيط المدن وتصميم المبانى أن يجدوا الحلول والابتكارات الهندسية لهذه المشاكل أو الصعوبات والتى أشرنا لبعض منها، فالحاجة أم الاختراع.

جـ- أهمية تحديد اتجاه القبلة بدقة:

القضية الثالثة التى نعرض لها فى هذا المحور تتعلق بوجوب حرص مخططى المدن

(١) ملاقف الهواء وأبراج الرياح كانت تستعمل فى المبانى الإسلامية القديمة لالتقاط الرياح السائدة الباردة بكل منطقة (للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: العمارة الإسلامية والبيئة (٢٠٠٤) . سلسلة عالم المعرفة- عدد٣٠٤، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص١١٦ ومابعدها) .

ومصممى المساجد والمبانى على تحديد اتجاه القبلة بدقة متناهية، لعدة أسباب هامة منها:

* ما يتعلق بالنواحى الشرعية: التى تجعل من التوجه للقبلة أثناء أداء الصلوات أحد شروط صحتها، مما يفرض على مصممى المساجد بصفة خاصة الحرص على تحديد اتجاه القبلة بدقة كبيرة، وهذا ينطبق أيضا على المبانى السكنية التى يتم أداء صلوات النوافل بها للرجال وصلاة الفرض بالنسبة للنساء فى حالة عدم ذهابهن لأدائها بالمساجد.

ويجدر بالذكر هنا أن الخطأ فى حساب اتجاه القبلة لدرجة واحدة فقط تبعد اتجاه المصلى إلى اتجاه يشير إلى مكان يبعد عن القبلة ١٠٣,٥٠ كم تقريبا، والدقيقة الواحدة تبعده ١,٧٠ كم[١]، لذلك يجب توخى الدقة فى إجراء الحسابات الخاصة باتجاه القبلة وطريقة تحديدها.

* ما يتعلق بتأثير ذلك التحديد على المحيط العمرانى ككل: فمن الأمثلة الهامة التى توضح مدى تأثير المسجد على محيطه وبيئته العمرانية ما يمكن أن يتضح من تأثير اختيار اتجاه القبلة لجامع الزيتونة بمدينة تونس التاريخية والذى انعكس أيضا على توجيه باقى المساجد بها، فعلى الرغم من أن توجيه جامع الزيتونة كان غير دقيق هندسيا، حيث تم توجيهه مائلا ٢٩ درجة و ١١ دقيقة على الاتجاه الصحيح للقبلة، إلا أن توجيه جامع الزيتونة سيطر على توجيه كل المبانى الدينية والتى بنيت بعد ذلك[٢]، لذلك فانه من الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه بالرغم من أن التحديد الدقيق لاتجاه القبلة هام جدا، إلا أنه بمجرد أن يتم تحديد اتجاه القبلة لمسجد جامع يتم بناؤه قبل تشكيل البيئة العمرانية المحيطة، فإن تأثيره يتعدى الدقة الهندسية ليؤثر فى كل محيطه العمرانى والمعمارى.

لقد أولى علماء المسلمين فى الماضى مسألة تحديد اتجاه القبلة اهتماما كبيرا، وكان

(١) محمد أحمد سليمان (١٩٩٩) . سباحة فضائية فى آفاق علم الفلك . مكتبة العجيرى، الكويت، ص ٥٠٥

(٢) صادق أحمد صادق (١٩٩٩) . التشكيل الفراغى وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية . من سجل ندوة عمارة المساجد (ج٣) ، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض .

ذروة الإنجازات الإسلامية فى مجال تحديد اتجاه القبلة تتمثل فى عمل عالم الفلك الخليلى (تألق فى دمشق حوالى ١٣٦٥م)، فقد وضع جدولا لاتجاه القبلة على أساس معادلة دقيقة، ويبين جدول الخليلى اتجاه القبلة لكل درجة من خط العرض بدءا من ١ درجة حتى ٥٦ درجة، ولكل درجة من خط الطول بدءا من ١ درجة حتى ٦٠ درجة، وبهذا يحتوى جدول الخليلى على مداخل يبلغ عددها ٣٠٠٠ مدخل تقريبا، وقد حسب اتجاه القبلة بالدرجات والدقائق، ويعتبر إنجازا رائعا أن تكون الغالبية العظمى من هذه المداخل محسوبة بمنتهى الدقة،أو بخطأ فى حدود زائد أو ناقص واحد أو اثنين دقيقة[١].

لقد وفرت الأجهزة الحديثة إمكانية تحديد اتجاه القبلة بالنسبة لأى مبنى فى أى موقع بدقة متناهية، بحيث لايوجد أى سبب يجعل المسلمين فى العصر الحديث أن يتقاعسوا عن البدء فى تنفيذ مدنهم ومبانيهم الجديدة فى اتجاه القبلة، لما فى ذلك من مزايا متعددة تعود على المسلمين القاطنين فى هذه المدن و المبانى كما أوضحنا آنفا.

ثالثا:البعد البيئى فى العمران الإسلامى

يهتم علم التصميم البيئى، وهو أحد فروع علم العمارة، بدراسة العناصر البيئية والمناخيةالتى تؤثر على تصميم المبانى والفراغات الخارجية من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان سواء داخل المبانى أو فى الفراغات الخارجية فى المحيط العمرانى[٢].

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية يتبين لنا أن القرآن الكريم قد لفت أنظار المسلمين إلى أهمية مراعاة العوامل البيئية فى التصميم العمرانى والمعمارى؛ لذلك فإن هذا المحور يهدف إلى إبراز المفاهيم التى وردت فى بعض الآيات القرآنية ذات الصلة

(١) دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤) . العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية . سلسلة عالم المعرفة- عدد(٣٠٥) ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، ص ,٦٦

(٢) يحيى وزيرى (٢٠٠٤) . دلائل الإعجاز العلمى فى إشارات التصميم البيئى فى القرآن الكريم . كتاب أبحاث المؤتمر العالمى السابع للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة بدبى، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، مكة المكرمة .

بمجال التصميم البيئى، مما يؤكد على أن مراعاة البعد البيئى هو أحد الضوابط التى يجب مراعاتها فى العمران الإسلامى.

مما يلفت النظر أن القرآن الكريم لم يغفل الإشارة إلى أحد أهم أهداف علم التصميم البيئى، التى يسعى المصممون لتوفيرها فى المبانى أو الفراغات الخارجية، وهذا الهدف ينحصر فى محاولة جعل درجات الحرارة داخل المبانى أو فى الفراغات الخارجية حولها فى حدود معينة لاتقل أو تزيد عنها، وذلك باستخدام أساليب تصميمية معينة.

ونلمح المعنى المشار إليه عاليه فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾[الانسان:١]، يقول ابن كثير -رحمه الله- فى شرح معنى قوله:﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾، أى ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم بل هو مزاج واحد دائم سرمدى لا يبغون عنها حولا[١]، كما جاء فى التفسير الميسر أن المقصود[٢]:"لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد"، والزمهرير فى اللغة هو شدة البرد.

إن الآية الكريمة السابقة تشير إلى الحالة التى سوف يكون عليها أهل الجنة، فليس عندهم حر مزعج أو برد مؤلم، وهو ما يتطابق مع تعريف مصطلح "الراحة الحرارية" الموجودفى علم التصميم البيئى، والذى ينص على أن الراحة الحرارية هى حالة العقل التى يشعر فيهاالإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجود فيها[٣]، فأى إنسان عادى لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلت درجة الحرارة عن حدود معينة، أى أنه لا يشعر بالراحة فى درجات الحرارة العالية مثلما لا يشعر بالراحة أيضا فى حالات البرودة الشديدة.

فإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة فإن الحرارة المتولدةمن الجسم تجد صعوبة فى الخروج وينتج عن ذلك ارتفاع فى درجة حرارة البشرة ونشاط الغدد التى تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى ٤ لتر/ ساعة مما يسبب

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان فى كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير .

(٢) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان فى كتاب "التفسير الميسر﴾[إعداد نخبة من العلماء) : مرجع سابق

(٣) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.

إرهاقا لايمكن احتماله إلا لفترة قصيرة، أما فى حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد وبالتالى يقل اندفاع الدم إلى البشرة مما يؤدى إلى برودة الشعيرات وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية فى حالات البرد الشديد (الزمهرير) ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات[١].

فإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من متع ونعيم مقيم فإن الآية الكريمة تضيف متعة الراحة "الحرارية" أيضا أى لا يرى فى الجنة شدة حر كحر الشمس ولا زمهريراً، أى: ولا بردا مفرطا، وفى نفس الوقت فإن الآية الكريمة تلفت النظر - وبشدة- إلى أن الهدف النهائى هو توفير الراحة لأهل الجنة، مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية العمل على توفير هذه الراحة بقدر المستطاع فى مبانى أهل الأرض تأسيا ببيئة الجنة المثالية والتى هى فوق خيال البشر.

ثم تأتى العديد من الآيات القرآنية الأخرى لتوضح وتبين للبشر كيف يمكن لهم أن يصلوا إلى هذه الغاية، وهى مراعاة العوامل البيئية فى التصميم ووسائل تحقيق الراحة الحرارية سواء فى المبانى أو الفراغات الخارجية وهو ما سوف نحاول أن نوضحه فى المحاور التالية:

١- مراعاة اختيار مواقع التجمعات العمرانية:

من خلال بحثنا فى آيات القرآن الكريم عن ضوابط العمران، وجدنا أن إحدى الآيات الكريمة قد أشارت بطريق غير مباشر إلى علاقة وتأثير العوامل البيئية فى اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية، حيث يقول تعالى: "﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ:١٥].

قال عبد الرحمن بن زيد فى تفسير الآية الكريمة السابقة[٢]:" إن الآية التى كانت

(١) شفق العوضى الوكيل، و محمد عبدالله سراج (١٩٨٥) . المناخ وعمارة المناطق الحارة . القاهرة، ص ، ١٦٦

(٢) انظر تفسير الآية ١٥ من سورة سبأ فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام، واذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فاذا نظروا إلى بيوتها ماتت الدواب، وقيل: بلدة طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها".

إن الآية الكريمة تلفت النظر إلى أهمية اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية من حيث المناخ الجيد والهواء الطيب، كما تلفت النظر إلى علاقة وجود الجنات الأرضية وتأثيرها على تحسين مناخ هذه التجمعات، فلقد أشارت الآية إلى وجود جنتين عن يمين وشمال مساكن بلدة سبأ، وهو مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية تواجد الحدائق فى التجمعات العمرانية كعنصر جمالى وبيئى فى نفس الوقت، كما لايجب أن نغفل دور إحاطة المساكن عن يمينها وشمالها بالحدائق مما يحميها من الرياح المحملة بالرمال فى حالة هبوبها على هذه التجمعات السكنية.

وفى آية كريمة أخرى يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أهمية دراسة الموقع قبل بناء المبنى، وذلك للاستفادة من ظروف البيئة، ونلمح ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[مريم:١٦]، أى اتخذت من جانب الشرق وهو المكان الذى تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيئ أفضل من سواها، حكاه الطبرى(١).

إن عملية تحديد علاقة الأماكن أو الفراغات العمرانية والمعمارية بالجهات الأصلية لها أهمية قصوى، لأن ذلك سوف يؤثر على الأسلوب الذى تتعرض له هذه الأماكن للإشعاع الشمسى أو الرياح السائدة بكل منطقة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة بطريق غير مباشر حيث أوضحت أن مريم انتبذت مكانا شرقيا من حيث تطلع الأنوار فى الصباح، وكما نعرف الآن فإنه ينصح بالتعرض للشمس عند طلوعها قبل أن ترتفع فى السماء وتشتد أشعتها لمافى هذا التعرض من فوائد صحية جمة(٢).

(١) انظر تفسير الآية ١٦ من سورة مريم فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيرى (٢٠٠٣) . التصميم المعمارى الصديق للبيئة . مكتبة مدبولى، القاهرة، ص ١١٨ وما بعدها .

لقد أراد القرآن الكريم أن ينبه إلى أهمية وعلاقة التجمعات العمرانية أو المبانى بالبيئة، سواء كان ذلك فى أسلوب اختيار أماكنها أو فى علاقتها بالجهات الأصلية، وهى أشياء توضح اهتمام الإسلام بالبعد البيئى عند إقامة التجمعات العمرانية.

٢- الإشارة إلى أهمية الظلال كأحد وسائل تحقيق الراحة الحرارية:

سبق وأن أشرنا إلى أن الهدف الأساسى لعلم التصميم البيئى هو تحقيق الراحة الحرارية فى المبانى أو فى الفراغات الخارجية، وتوجد وسائل واستراتيجيات تصميمية متعددة لتحقيق هذا الهدف، ومن أهم هذه الوسائل وأنجحها توفير الظلال.

وبدراسة الآيات القرآنية التى تحدثت عن الظلال، نجد أن القرآن الكريم ينهج نهجا رائعا فى لفت النظر إلى أهمية الظلال، ففى البداية نرى أن الله يلفت نظر عباده إلى الظل كظاهرة طبيعية مشاهدة لها خصائص معينة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيراً﴾[الفرقان:٤٥، ٤٦].

إن الآية الكريمة توضح بعض خصائص الظل فى الامتداد والانقباض وعلاقة هذا بانخفاض الشمس أو ارتفاعها فى السماء على مدار اليوم، إن مراد الآية الكريمة لفت الأنظار إلى ظاهرة الظلال كظاهرة طبيعية تستحق التدبر والدراسة.

والظل فى اللغة نقيض الضح (بالكسر)، أو هو الفيئ أو هو بالغداة و الفيئ بالعشى، ومكان ظليل ذو ظل، والظلة شيء كالصفة يستتر به من الحر والبرد، والظلال والمظلة (بالكسر والفتح) الكبير من الأخبية، والظليلة مستنقع الماء فى أسفل مسيل الوادى والروضة الكثيرة الحرجات، والظلل الماء تحت الشجر لا تصيبه الشمس[١]، وفى المعجم الوجيز[٢]: الظل هو ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، والظليل ذو الظل ويقال ظل ظليل أى دائم.

(١) انظر معجم الفيروزابادى .
(٢) انظر المعجم الوجيز .

ثم فى آية أخرى يوضح القرآن أن الظلال هى إحدى نعم الله سبحانه وتعالى التى امتن بها على البشر، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١]، أورد الإمام القرطبى -رحمه الله- فى تفسير الآية الكريمة ما يلى(١): "لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل كبيرة فقد أوضح الله سبحانه وتعالى أن الظلال إحدى نعمه التى من بها على بنى البشر، فالله سبحانه وتعالى قد خلق للبشر الأشجار التى توفر الظلال كما جعل من الجبال مواضع للسكنى كالكهوف -كما فى كهف أهل الكهف- يلجأ إليها الإنسان طلبا للظل والحماية، كما ألهمهم اتخاذ الأبنية حماية لهم من الحر والبرد وطلبا للظل".

ثم تأتى آية كريمة أخرى لتوضح، بأسلوب واضح مباشر، أهمية الظلال من ناحية توفير الراحة الحرارية؛ لأن الظل لايستوى والحر، فيقول جل فى علاه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾[فاطر: ١٩-٢٣]، إن الآية الكريمة تؤكد وتنبه على حقيقة يلمسها جميع البشر حيث يشعرون بالفرق الكبير بين الأماكن المظللة والأماكن المعرضة للشمس والحر.

ثم بعد ذلك تأتى آية قرآنية لتوضح الأهمية القصوى للظلال لدرجة أنها تصبح إحدى المتع التى أعدها الله لعباده الصالحين بالجنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾[الواقعة: ٢٧-٣١]، قال الضحاك والسدى وأبو حرزة فى قوله تعالى: "وظل ممدود" لاينقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس(٢).

وفى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول

(١) انظر تفسير الآية (٨١) من سورة النحل فى كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبى.
(٢) انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الواقعة فى تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.

الله صلى الله عليه وسلم:" إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها، فاقرءوإن شئتم وظل ممدود"، وفى الصحيحين أيضا من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها"(١).

ومن اللافت للنظر أن الآية الكريمة قد ربطت ما بين الظل الدائم ووجود الماء الجارى، وهو ما يؤدى إلى زيادة التقليل فى درجات الحرارة وهو ما أثبتته العديد من التجارب الحديثة(٢)، لقد أعطت الآية الكريمة أنموذجا مثاليا للتصميم البيئى حيث الجمع بين الظلال والماء، وهو ما يفسر حرص المسلمين الأوائل على وجود النوافير والبحيرات المائية داخل أفنية المبانى والبيوت الإسلامية وفى الحدائق الخارجية المحيطة بها بهدف خفض درجات الحرارة، إلى جانب تحقيق العامل الجمالى أيضا(٣).

إن حرص القرآن الكريم على لفت الأنظار لأهمية الظلال فى عمليات التصميم البيئى له شقان: الأول منهما يؤكد على أهمية العلاقة بين العوامل البيئية والعمران والبنيان الإسلامى، والثانى يوضح أن هذا التأكيد والحرص على أهمية الظلال يتفق مع القياسات العلمية الحديثة التى توضح أثر توفير الظلال فى خفض درجات الحرارة داخل المبانى والفراغات الخارجية المكشوفة(٤).

---

(١) الإمام ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ) . حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة، ص ١٣٦.

(٢) انظر على سبيل المثال:

Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system?an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp. 95-97.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيرى (العمارة الإسلامية والبيئة) : مرجع سابق، ص١٣٢، ص٢١٨، ٢١٧.

(٤) تعتبر عملية تظليل المبانى أو الفراغات الخارجية أحد أهم مبادئ علم التصميم البيئى، وحتى يمكن أن ندرك أهمية إيجاد وتوفير الظلال خاصة بالمناطق الحارة فإن بعض الدراسات أوضحت أن تظليل الشوارع يؤدى إلى خفض فى درجة الحرارة يقدر بحوالى ٤ درجات مئوية، وفى قياسات تمت على بعض أفنية المنازل الإسلامية القديمة بالقاهرة اتضح أن درجات الحرارة داخل هذه الأفنية المعرضة للظل تقل بحوالى ٤ إلى ٧ درجات مئوية عن درجة حرارة سطح المنزل المعرض للشمس .

٣-أنموذج قرآنى يوضح فكرة التصميم البيئى:

خلال بحثنا فى القـرآن الكريم عن الآيات التى تبرز أهمية البعد البـيئى فى العمران والبنيان، وجدنا أحـد الأمثلة الهامة التى توضح أحـد جوانب الفكر البيئى فى التـصميم المعـمارى، ونقـصد هنا تحـديدا الوصف الوارد بسورة الكهف لـعلاقة حـركة الشـمس بالكهف الذى لجأ إليه الفتية المؤمنون، ويصف لنا سـبحانه وتعالى هذه العلاقة فى قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف:١٧].

يقول الإمام الشوكانى فى تفسير الآية الكريمة[١]: "للمفسرين فى تفسير هذه الآية قولان: الأول: أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظل جميع نهارهم ولا تصيـبهم الشمس فى طلوعـها ولا فى غروبها لأن الله حـجبهـا عنهم، والثانى: أن باب الكهف كـان مفتـوحا جـهة الشمـال فإذا طلعت الشـمس كانت عن يمـين الكهف وإذا غربت كانت عن يساره".

إن الشاهد من الآية الكريمة السـابقة أنها تلفت النظر إلى علاقة حـركة الشمس بكهف الفتية المؤمنين[٢]، وهى بذلك تلفت النظر بطريقة غـير مباشرة إلى أهمية دراسـة العلاقة بين توجيه المبنى والإشعاع الشمسى الواصل إليه، لما فى ذلك من تأثير كبير على تعرض واجهات المبانى من الخارج لهذا الإشعاع على مـدار العام، وهو ما يؤثر على فراغات المبنى من الداخل عن طريق دخول الإشعاع الشمسى من فتحات المبنى الخارجية.

لقـد أوضح المفسـرون -جزاهم الله خـيرا- أهـمـيـة توجيـه فتـحة الكهف بحـيث لايتعرض من بداخله للإشعاع الشـمسى المباشر بل يكون فى الظل أغلب الوقت، وهذا

(١) انظر تفسير الآية ١٧ من سورة الكهف فى تفسير فتح القدير للامام الشوكانى .

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر بحثنا: دلائل الإعجاز العلمى فى إشارات التصميم البيئى فى القرآن الكريم: مرجع سابق .

الهدف هو أحد أهداف عملية التصميم البيئى خاصة فى المناطق الحارة والتى تركز على استراتيجيتين أساسيتين بالنسبة لعلاقة المبنى بالإشعاع الشمسى وهما[١]:

١- فى الصيف: تقليل التعرض للإشعاع الشمسى.

٢- فى الشتاء: العمل على زيادة اكتساب للإشعاع الشمسى.

إن نماذج الآيات القرآنية التى أوردناها فى هذا المحور، تؤكد على أن القرآن الكرى مقد أوضح أهمية أخذ العوامل البيئية فى الاعتبار عند تصميم المبانى أو على مستوى التجمعات العمرانية، مما يعنى أن أخذ البعد البيئى فى الاعتبار يعتبر من ضوابط العمران والبنيان التى أكد عليها القرآن الكريم.

إن هذا الضابط الذى ألمح إليه القرآن الكريم يجب أن يؤخذ فى اعتبار القائمين على تعمير المدن والمجتمعات العمرانية فى الدول الإسلامية، بحيث لايكون الاعتماد فقط على الوسائل والتقنيات الحديثة كأجهزة التكييف وما شابه، لما لها من أضرار صحية إلى جانب أعبائها الاقتصادية الكبيرة والتى ربما تتفق مع الظروف الحالية لبعض المجتمعات العربية، ولكنها من جانب آخر لاتتفق مع الظروف الاقتصادية السائدة فى الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى.

الخلاصة:

لقد قدمت هذه الورقة البحثية رؤية جديدة لبعض ضوابط العمارة والعمران، وهذه الرؤية أساسها القرآن الكريم المصدر الرئيس للتشريع الإسلامى، وهى بذلك توضح أن القرآن الكريم قد وضع قواعد عامة فى العديد من مسائل وقضايا عمارة الأرض، والتى تصلح لأن تكون منهجا يتم اتباعه فى كل زمان ومكان، مع ترك مساحات كبيرة للإبداع الفنى والتقنى مادام لايتعارض مع القواعد الأساسية للشريعة الإسلامية.

إن الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض لاتمنع من الأخذ والتفاعل مع الحضارات الأخرى، والتاريخ الإسلامى خير شاهد على ذلك، ولكن من جانب آخر فإن هذه الرؤية

(١) انظر على سبيل المثال:

Watson , D. (1983). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York.

أيضا تحض على أن يكون للمجتمع المسلم تميزا وتفردا عن غيره من المجتمعات ظاهرا وباطنا، وهنا يتجلى دور العمارة والعمران لتكون هى الوعاء المادى المعبر عن هذه الرؤية المتميزة، وهو ما حاولت هذه الورقة أن توضحه وتلفت الأنظار اليه.

إن أهم مايميز الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض أنها مؤسسة على تقوى الله، فعمارة الأرض فى الإسلام تعتبر عبادة، كما أن هذه الرؤية تحذر وبشدة من فكرة الاستكبار والعلو فى الأرض والممارسات الإعمارية الفاسدة، إنها رؤية تجعل للعمارة والعمران دور كبير فى الارتقاء بأخلاقيات المجتمع، حيث يصبح المعمار وسيلة لتهيئة البيئة المناسبة لعبادة الله.

* * *

مراجع البحث

١ -القرآن الكريم.

أولا: التفاسير والمعاجم اللغوية:

(٢) "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبى.

(٣) تفسير فتح القدير للإمام الشوكانى.

(٤) التفسير الميسر (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية) . وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية.

(٥) تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير

(٦) الحافظ بن كثير (١٩٨٢) . قصص الأنبياء. دار الحديث، القاهرة.

(٧) المعجم الوجيز (٢٠٠٠). طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية.

(٨) معجم القاموس المحيط الفيروزابادى.

ثانيا: المراجع العربية:

(٩) أحمد محمد السعد (٢٠٠٣) . ضوابط بناء المساكن فى الفقه الإسلامى. مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.

(١٠) ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ) . حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح. دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة.

(١١) البخلاخى أمحند (١٩٩٤) . فاس ومراكش..مدن لها تاريخ. مجلة المنهل- عدد (٥١٩)، جدة.

(١٢) توفيق محمد سبع (بدون تاريخ) . قيم حضارية فى القرآن الكريم (ج١) . القاهرة.

(١٣) جريدة اللواء الإسلامى، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة.

(١٤) خالد عزب (١٩٩٧) . تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. كتاب الأمة، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف واللمسجد وعبر الشارع، وداخل المبانى المعاصرة".

(١٥) دافيد مالين رودمان ونيكولاى لينسن (ترجمة: شويكار ذكى) .(١٩٩٧) . ثورة فى عالم البناء. الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.

(١٦) دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤) . العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة- عدد(٣٠٥) ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب، الكويت.

(١٧) زغلول النجار (١٩٩٢) . اكتشاف مدينة إرم ذات العماد التى تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا. جريدة الأهرام المصرية (١٠/ ٤/ ١٩٩٢) .

(١٨) زغلول النجار (٢٠٠٢) . من أسرار القرآن. جريدة الأهرام المصرية (٧/ ١٠/ ٢٠٠٢) .

(١٩) شفق العوضى الوكيل، ومحمد عبدالله سراج (١٩٨٥) . المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة.

(٢٠) صادق أحمد صادق (١٩٩٩) . التشكيل الفراغى وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية. من سجل ندوة عمارة المساجد (ج٣) ، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

(٣١) عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣) . فقه الإعمار وضوابطه فى الفقه الإسلامى. مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.

(٣٢) فؤاد عمر توفيق (١٩٨٦) . أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة. كتاب أبحاث ندوة "الإسكان فى المدينة الإسلامية" بأنقرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص ١٢٧ - ١٣٤ .

(٣٣) محمد أحمد سليمان (١٩٩٩) . سباحة فضائية فى آفاق علم الفلك. مكتبة العجيرى، الكويت.

(٣٤) يحيى وزيرى (١٩٩٠) . خواطر الشيخ الشعراوى حول عمران المجتمع الإسلامى. مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة.

(٣٥) يحيى وزيرى (١٩٩٢) . التعمير فى القرآن والسنة. القاهرة.

(٣٦) يحيى وزيرى (٢٠٠٢) . المجتمع وثقافة العمران. مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

(٣٧) يحيى وزيرى (٢٠٠٣) . التصميم المعمارى الصديق للبيئة. مكتبة مدبولى، القاهرة.

(٣٨) يحيى وزيرى (٢٠٠٤) . العمارة الإسلامية والبيئة . سلسلة عالم المعرفة- عدد٣٠٤، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٣٩) يحيى وزيرى (٢٠٠٤) . دلائل الإعجاز العلمى فى إشارات التصميم البيئى فى القرآن الكريم. كتاب أبحاث المؤتمر العالمى السابع للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة بدبى، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، مكة المكرمة.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

(40) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.

(41) Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceedings of the symposium on Mosque Architecture, Vol.3B, pp. 137-181, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

(42) Watson , D. (1983). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York.

(43)Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system?an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp. 95-97.